من تراب الطريق (٤٠٩) من مناجاة المتصوفة(*)

للمتصوفة لغتهم ورموزهم الخاصة ، وهكذا مناجاتهم وما يبثونه فيها من معان .. فى أحد فصول «الفوائد» لابن القيم الجوزية ، يقول : طوبى لمن أنصف ربه فأقر له (على نفسه) بالجهل فى علمه والآفات فى عمله والعيوب فى نفسه والتفريط فى حقه والظلم فى معاملته . فإن آخذه ـ سبحانه ـ بذنوبه رأى عدله ، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله ، وإن عمل حسنةً رآها من منته وصدقته عليه ، فإن قبلها فمنّة وصدقة ثانية ، وإن ردها ـ سبحانه ـ فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به : وإن عمل سيئة رآها من تخليه عنه وخذلانه له وإمساك عصمته عنه .. وذلك من عدله فيه .. فيرى فى ذلك فقره إلى ربه وظلمه فى نفسه ..فإن غفرها له ﷻ فبمحض إحسانه وجود كرمه .

***

المحبون إذا خربت منازل أحبائهم قالوا سقيا لسكانها : وكذلك المحب إذا أتت عليه الأعوام تحت التراب ذكر حينئذ حسن طاعته له فى الدنيا وتودده إليه وتجدد رحمته وسقياه لمن كان ساكنا فى تلك الأجسام البالية .

***

- من عظم وقار الله فى قلبه أن يعصيه ـ وقره الله فى قلوب الخلق أن يذلوه .

(*) المال ٢٢/ ٢/ ٢٠١٠ .

- إذا علقت جذور المعرفة فى أرض القلب ، نبتت فيه شجرة المحبة ، فإذا تمكنت وقويت أثمرت الطاعة ، فلا تزال الشجرة تؤتى أُكلها كل حين بإذن ربها .
- أول منازل القوم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الاحزاب] ، وأوسطها : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[الاحزاب: ٤٣] ، وآخرها : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الاحزاب: ٤٤].
- أرض الفطرة رحبة قابلة لما يُغرس فيها ، فإن غُرست شجرة الإيمان والتقوى أورثت حلاوة الأبد . وإن غُرست شجرة الجهل والهوى فكل الثمر مر !!
- لا يستطيع أن يرحل إلى الله ، من كبَّل نفسه بالشهوات !

***

- الذنوب جراحات ، ورب جرح وقع فى مقتل !
- من أرضى جوارحه بالشهوات ، غرس فى قلبه شجرات الندم !
- لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة له !
- مفتاح كل بركة : الصبر فى مواضع سلوكك ، إلى أن تصح لك إرادة فإن صحت لك الإرادة ، فقد ظهرت عليك أوائل البركة .
- بحر الهوى إذا مد أغرق ، وأخوف المنافذ على السابح فتح البصر فى الماء .
- نور العقل يضىء فى ليل الهوى فتلوح جادة الصواب فيتلمح البصير فى ذلك النور عواقب الأمور.

- أخرج بالعزم من هذا الفناء الضيق المحشو بالآفات إلى ذلك الفناء الرحب الذى فيه ما لا عين رأت .. فهناك لا يتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب .
- من أقوال الجنيد: «الخوف من الله يقبضنى ، والرجاء منه : يبسطنى . والحقيقة : تجمعنى . والحق : يفرقنى ، إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى ، وإذا بسطنى بالرجاء ردنى على ، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى ، وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى ، فغطانى عنه ، فهو تعالى فى ذلك كله محركى غير ممسكى ، وموحشى غير مؤنسى ، فأنا بحضورى أذوق طعم وجودى ، فليته أفنانى عنى فمتعنى ، أو غيبنى عنى فروحنى» .

***

- يا ضعيف العزم .. أين أنت والطريق طريق تعب فيه آدم : وناح لأجله نوح : ورمى فى النار الخليل : وأضجع للذبح إسماعيل : وبيع يوسف بثمن بخس ولبث فى السجن بضع سنين : ونشر بالمنشار زكريا : وذبح السيد الحصور يحيى : وقاسى أيوب : وزاد على المقدار بكاء داود : وسار مع الوحش عيسى : وعالج الفقر وأنواع الأذى ـ محمد صلى الله عليه وسلم .. وتزهو أنت باللهو واللعب !
- من شيم العارفين ، أنهم إذا أعطاهم الله حمدوه وشكروه ، وإن منعهم ناشدوه وتضرعوا إليه وذكروه .. ولا يجعلون العطاء المنعَم به عليهم يشغلهم عن ذكره .
- قيل لبعض العبَّاد : كم تتعب نفسك ، فقال : راحتها أريد .

- روى الصوفى أحمد بن أبى الحوارى أنه دخل يوما على أبى سليمان الدارانى فوجده يبكى ، فسأله : ما يبكيك ؟! قال الدارانى : ولم لا أبكى ، وإذا جنَّ الليل ، ونامت العيون ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وافترش أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وتقطرت فى محاربهم ، وأشرف الجليل سبحانه وتعالى ، فنادى : يا جبريل ، بعينى من تلذَّذ بكلامى واستراح إلى ذكرى ، وإنى لمطلع عليهم فى خلواتهم .. أسمع أنينهم .. وأرى بكاءهم . فلم لا تنادى يا جبريل : ما هذا البكاء ؟! هل رأيتم حبيبًا يعذب أحباءه ؟

***

- من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه : وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة : وأن تعرف قدر الربح فى معاملته ثم تعامل غيره : وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له : وأن تذوق ألم الوحشة فى معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته . وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض فى غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته : وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه : وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شىء إليه وأنت عنه معرض وفيما يبعدك عنه راغب .

*****